قصة قصيرة

رحلة الغياب

يوسف الحيدري

في الساعة السادسة صباحاً . . من يوم ربيعي رائق . . رن جرس الهاتف .

ـ آلو . . من؟ . عبد المجيد . . ماذا تقول؟ مات . . ولكن كيف؟!

كان تهدج صوته واضحاً عبر أسلاك الهاتف . . وكنت في الطرف الآخر وحيداً . . مليئاً بالحزن . . والغضب . !

هل أطيق مواجهة القدر بكل قسوته؟ أو أمنع موت شقيقي ـ نور ـ من أن يصبح حقيقة سوداء . . ماذا بقي إذن في لغة العقل والمنطق؟! هكذا إذن . . . وينتهي كل الحلم الملون الكبير . . كل الخضرة والربيع والرغبات المؤجلة والمحبطة منذ زمن بعيد . . هكذا ينتهي الفارس بعد أن يكبو به جواده الأحمق . . فيهوي من حالق يمرغ وجهه التراب وتشد قبضتاه القويتان على الأرض . . ثم يحاول النهوض بما بقي في جسده المتعب من فتوة وقوة . . غير أنه يستلقي أخيراً على ظهره بلا حراك . . تمتص عيناه الجميلتان . . الغائمتان . . زرقة السماء الربيعية ، فلا يجد من يغمض له جفنيه ، فتظل عيناه مفتوحتين . فيهما أكثر من عتاب وأسف . . للعمر القصير الذي ضاع في لحظات جنونية . . وعلى بعد خطوات منه . . كان نثار الزجاج يلمع تحت شمس آذار المتوهجة مع بقع من دم متخثر وجثة سيارة محطمة . «بين الولادة والموت . . زمن قصير . . بل لحظات وينتهي الفتى . . ويسقط الفارس مضرجاً بدمائه . . ماذا بقي إذن في لغة العقل والمنطق؟!» .

تمتص عيوني خيط الدم الأحمر الذي يسيل عبر المجرى المائي الصغير وسط باحة الدار . . وعلى مبعدة خطوات يتألق ـ الثيل ـ الأخضر . . وتتفتح براعم الجوري والأشرفي والقداح . . وخلف ستارة كثيفة من بطانية مستهلكة تمتد منضدة خشبية عتيقة يرقد فوقها الفارس القتيل ـ المغدور حيث يتم غسل وتعطير جسده الشامخ ـ الرائع رغم سكونه الأبدي ـ بالبخور وأوراق النعناع . . فهو الآن على موعد مع عروسه التي اختارها بعد سنوات طويلة من التمنع والخوف من الزواج . . بعد نصف ساعة فقط ستودعه الزغاريد . . حيث تنتظره حفرة غائرة . . على عمق مترين تحت الأرض . . عندئذٍ سيرقد فوق سريره السماوي بهدوء وصمت الحكماء والرجال المحنكين وبشجاعة الفرسان الحقيقيين مع زفرة أسى للعمر القصير الذي انتهى بسرعة خاطفة وكأنه وميض برق أو انطفاء شمعة ثم . . ساد ظلام خانق كثيف!

لقطات كبيرة . . وملوّنة من حياة الفارس القتيل

ـ لقطة (١) ـ كلوزآب ـ للفارس وهو يبتسم ـ

تجلجل ضحكته العريضة . . ويكاد يستلقي على ظهره للنكتة الجديدة التي رويتها له . . ثم يهمس في أذني . . وثمة بسمة مشرقة تضيء المكان .

ـ لقد قررت أخيراً أن أتزوج . . هه . . ماذا تقول؟!

ـ جميل . . رائع . . إنه عين العقل يا عزيزي . .

هتف . . وكنت سعيداً جداً . . للمفاجأة . .

ـ ولكن . .

همس وهو ما زال يبتسم .

ـ ماذا؟ نفس الشروط التعجيزية؟ .

قلت . . وقد غمرني شعور مبهم بالخوف:

ـ لا . . لا . . فقد تنازلت عن بعضها . . ولكن القوام الرشيق وزرقة العيون شرطان لا بد منهما . .

ـ ولكن السعادة يا أخي . . ليست .

قاطعني بلهجة حادة .

ـ أرجوك . . هذه هي شروطي . . «بعد صمت مفاجىء» . . وإلا . .

وإلاّ ماذا؟ . . وآلفهي عليك . . وكأنك كنت تهددنا بالموت الذي ربما كان شبحه المريع يحوم حول رأسك . !

ـ لقطة (٢) ـ ملونة وكبيرة . . من حياة الفارس القتيل ـ

غصّ العامل الأول . . وهو يردد .

ـ أبداً لن أنساه ـ وأسفي عليه ـ لقد زارنا مرة في البيت «وهو المدير الغني للمصنع» وأنا العامل البسيط . كان يرتدي ملابس العمل . . ولم تكن بسمته العريضة لتفارق وجهه الجميل وهو يداعب صغاري . . وكأنه واحد من أفراد أسرتي ! .

غمغم العامل الثاني بحزن . . وكز على أسنانه وكأنه ينفّس بذلك عن غضبه وحزنه . .

ـ وأنا . . ألم توصد في وجهي الأبواب حين احتجت لمبلغ من المال لتكملة تشييد داري . . من الذي أنقذني من ورطتي تلك سواه؟ !

بعد صمت مفاجىء . . أضاف وعيناه مليئتان بالدموع .

ـ مسكين . . إنه يذكرني بزهرة حمراء نادرة تنمو على سفوح الجبال ـ تمتاز برائحتها الزكية . . غير أن عمرها قصير جداً . . إذ سرعان ما تذبل وتتساقط تويجاتها الملونة . . وتتيبس . . سوى أن رائحتها تظل تعبق وتنتشر في المكان . . لفترة طويلة ! .

لقطة ـ ٣ ـ بالأبيض والأسود .

لقطة ـ ٤ ـ ملونة . . من المصنع ـ

غرق المصنع في ذهول عميق كأنه مقبرة . كان النبأ الفاجع قد صعق الجميع . . فلم تند أي حركة أو نأمة لتشوّه جلال الصمت الأسود الذي لفّ كل شيء برداء قاتم . . حزين . .

**

سرى لفظوهمهمة بين الحضور . . فكنت ألتقط وأنا في أقصى حالات الحزن والغضب كلمات من مثل : السيارة كانت من طراز حديث . لقد انفجر الإطار الأمامي فجأة . . لم يكن السائق مدرباً بشكل جيد . . كان المرحوم غافياً في الحوض الخلفي متعباً . . بعد أن أمضى أكثر من ثلاث ساعات في الليلة السابقة بعد إنتهاء الدوام الرسمي في إصلاح المكائن الثلاث المعطوبة منذ أكثر من شهرين . . وبعد أن عجز الخبير الأجنبي عن إصلاحها . .

إن موته خسارة كبيرة للوطن . . لا أحد يعرف السبب الحقيقي للحادث المفجع إلى الآن . . وكل ما قيل . . ويقال . . إنما هو من قبيل التخمين . .

قال صوت ينفح حسرة وألماً :

ـ هل نسيتم كيف كان يشاركنا الطعام دون عجرفة أو غرور فارغ كما يفعل البعض . . وكيف كان يستفسر عن أوضاعنا البيتية . . حتى في ساعات راحته؟

انقطع اللغط فجأة . . وساد صمت عميق . . فقد كان صوت المقرىء العذب يتغلغل في العروق ببطء غريب . .

[لقطة ـ ٥ ـ بالأسود والأبيض ـ باكراو ند . . قبل عشرين عاماً المنظر: حي عمالي . . شارع رئيسي، حوانيت لجمعية استهلاكية . . عطار . . إسكافي ـ بائع خضراوات . . مقهى صغير . . جزار . . حوانيت أخرى متنوعة].

الصبي ـ نور ـ ابن الثانية عشرة . . تلميذ في الصف الخامس الابتدائي . . ذكي . . درجات شهرية عالية في كافة الدروس . . المدرسة مزدوجة . الدوام

ـ ترى من يكون . . يا نور؟

سألت بتلهف :

أشعل لفافة . . بعد صمت قصير أضاف وعلى شفتيه ابتسامة سخرية :

ـ إنه ضريح نابليون بونابرت . . !

صرخت :

ـ أووه . . يا له من ضريح جميل . . هل هذا كل ما بقي من بونابرت . . مجرد حجر ضخم . . صامت؟ !

ـ إنه حجر من نوع غريب . . في تركيبه . . ولونه .

ـ إذن . . فقد استطاع هذا الحجر الغريب أخيراً . . أن يضع

حداً لطموحه الكبير وجنونه العجيب.. ما أصغر نابليونك هذا.؟!

«عملية مونتاج.. للقطات متنافرة».

المونتير وحذقه مع شيء من العاطفة الإنسانية يخلقان شريطاً جديداً.. مليئاً بالإثارة.. حيث ينفعل القارىء فيتعاطف مع الحدث الفاجع.. بنبل وحب.. يستحقهما الفارس المغدور..

لقطة ـ ٨ ـ في البيت:

يداعب الصغار بحب ويوزع عليهم الهدايا والحلويات.. بعد أن ينحني لتقبيل يد الوالدة كلما عاد من العمل.

لقطة ـ ٩ ـ

في حديقة داري الصغيرة.. يرشف الشاي بتلذذ كبير.. صدفة.. تعجبني ربطة عنقه.. فأعلق بكلمات قليلة.. لأرضي غروره الطفولي وذوقه الرفيع في إختيار الألوان المتناسقة.. فأقع في ورطة.. إذ سرعان ما يحل الرباط الأنيق ويقدمها لي هدية متواضعة بعد أن يغلبني بأصراره العنيد على قبوله.. فأقف ذاهلاً.. شبه نادم.. وأنا أحدق فيه بنظرات غريبة.. حائرة!.

لقطة ـ ١٠ ـ في مقهى صغير ـ عند مدخل شارع أبي نؤاس..

ابتسامة مشرقة تملأ الوجه.. وقبل أن أحرك الملعقة داخل القدح الصغير. يفرش ورقة مستطيلة أمام عيوني.. أقرأ العنوان.. فابتهج. إنه أمر إداري يقضي بتعيينه مديراً عاماً لمصنع تحت التأسيس.. لصنع إطارات السيارات في إحدى مدن الوطن النامية.. أعتنقه بحب.. وأنا أكثر زهواً منه.. يحدق في وجهي المنشرح بنظرات عميقة.. تختصر كل تعب الأيام والسنوات الطويلة المليئة بالعمل الدائب والحب لكل الناس.. ما زال يحدق في وجهي وكأنه مرآة عاكسة يلمح من خلالها شريط الأيام القادمة.. ثم يغمغم بكلمات غامضة:.

ـ هيه.. يا عزيزي.. إن ما وصلت إليه الآن يخيفني حقاً!. رغم أنني أستحقه عن جدارة.. غير أن ما يلوح لي في الأفق البعيد يقلقني.. ترى.. هل أستطيع أن أرتاح قليلاً؟.. بعد هذا التعب الكبير؟!.. أنا بحاجة ماسة يا أخي.. إلى راحة طويلة.. هذا ما أحسه.. أليس من حقي الطبيعي.. أن أستقر أخيراً؟! بعد صمت طويل:

ـ أوه.. لقد نسيت.. هل لك أن تجد العروس لي أخيراً؟! لقد وعدتني بذلك.. اطمئن.. سوف أقدم تنازلات أخرى.. هيا يا أخي.. أسرع.. أخشى أن.. يفوت الوقت.. ودون أن أحقق أمنية العمر الأخيرة؟!

كلاكيت ـ لقطة رقم ـ ١٠ ـ آخر مرة ١٢ ـ ٣ ـ ١٩٧٧.

في الأيام الثلاثة الأولى من الأسبوع (ظهري).. يستغل الصغير ـ نور ـ فترة ساعات الصباح.. ليعمل عند الجزار عبد الفتاح.. لقاء مئة وخمسين فلساً.. خمسون فلساً مبلغ جيد لمصروفه اليومي.. والدرهمان الباقيان للوالدة العزيزة الشاكية دوماً من عدم كفاية الراتب الضئيل الذي يتقاضاه الوالد كل شهر.. والأسرة كبيرة.. والصغار في المدارس.. وهم لا يعرفون الشبع.. والصبي ينسى كل التعب الجسدي.. والذهني.. حين يستلقي على الفراش لينام وحين يلمح الأم وهي ترفع يديها للسماء.. تدعو له بطول العمر والنجاح في المدرسة:

ـ إن شاء الله تصير مهندس.. يا حبيبي... يا نور... كم شهم أنت يا رجل البيت صغير..!

رجل البيت الصغير يقف الآن قرب سريرك يا أماه.. لقد كبر وأصبح رئيساً للمهندسين ومديراً فنياً للمصنع.. ها هو الآن يقف دامع العين.. يترقبك وأنت تلفظين انفاسك الأخيرة.. بعد أن توقفت أو كادت أن تتوقف كليتك الثانية حيث أخذ التسمم في الدم يسبب لك هذه الغيبوبة الطويلة... وها هو يلمح في عيون الأطباء علامات اليأس من إنقاذك.. هأنذا أسمع نشيجه الحارق وهو يغمر وجهك الحنون بقبلاته ودموعه.. إن رجلك وفارسك الشهم يا أماه.. يبكي الآن كالأطفال!.

لقطة ـ ٦ ـ زوم:

ـ مدينة ألمانية صغيرة ـ

طالب البعثة ـ نور ـ داخل ورشة عمل تدريبية ـ

المدرب الألماني يربت بيد حانية على ظهره.. ويردد بلكنة محببة وهو يبتسم:

ـ كويس.. يا هر نور.. كويس.. إنت طالب كويس.. يا.. نور..

يفرح نور لهذا الإطراء الذي جاء صادقاً.. ودون مجاملة.. تكبر البسمة في وجهه وتزدهر.. ولسان حاله يقول:

ـ سوف أعرف . . كيف أعمل من أجلك يا . . وطني الحبيب!

لقطة ـ ٧ ـ كلوزآب ـ

يخرج ـ نور ـ من حقيبة سوداء صغيرة، رزمة من بطاقات ملونة . . يغمغم والفرحة تملأ كيانه :

ـ أنظر جيداً . . هل تراني بوضوح؟ . الثالث على اليمين . . بملابس العمل في معمل . . للميكانيكا . . بمدينة ـ ساربروكك ـ الألمانية الجميلة . . يضحك ـ وقد كست وجهه حمرة شفيفة ـ حين يواجه نظراتي المشاكسة :

ـ هممم . . م م . . وهذه الشقراء الرائعة . . حتماً . . مجرد طالبة و . . زميلة . . هه . ماذا قلت؟!

ـ أقسم لك . . إنها مجرد . . زميلة .

ـ نعم . . صدقت . . مجرد . . زميلة . .

ونستغرق معاً . . في ضحك طويل . .

ـ أوه . . ما هذا؟! برج إيفل . . قوس النصر . . الشانزليزيه؟!

يقول . . وقد امتلأ زهواً :

ـ مجرد إجازة . . بضعة أيام . . وكانت باريس . . حلم العمر . . كم تمنيتك هناك . . . يا أخي! .

لحظات صمت غريبة . . ثم يخرج صورة ملونة . . يحدق فيها للحظات ثم يناولني إياها . . وقد كست وجهه صرامة وهدوء ثم يشرح لي بلغة خبير:

ـ تأمل هذه الصورة جيداً . . إنها ضريح لرجل هز العالم لسنوات وتسبب في موت مئات الألوف من البشر إرضاء لجنونه وحبه للسلطة! .

في الثالثة عصراً . . غادر المهندس ـ نور ـ المصنع . . بعد أن صافح أصدقاءه العمال ومنحهم من المشاعر الشيء الكثير . . إنه سيغيب عن المصنع بضعة أيام . . متجهاً نحو بغداد . . لحضور ندوة لزيادة الانتاج . .

ربت على كتف العم ـ عبدالله ـ بحنان ظاهر . . فحارس بوابة المصنع هذا يذكره بأبيه المرحوم الذي مات بجلطة في الدماغ . . ولما يتجاوز الخمسين من عمره . .

شيعه العم عبدالله بنظرات فيها الحب الكبير لهذا المهندس الشاب المليء حيوية وتواضعاً وعصامية . . وغمغم من بين أسنانه المصفرة :

ـ لتحرسك السماء . . يا ولدي!

المشهد الأخير

هدرت سيارة «البيجو» البيضاء أخيراً . . وانطلقت بعنف حيث طبعت إطاراتها على الأرض خطوطاً سوداء ظلت لأيام عديدة شاهدة بدء رحلة الغياب . . غمره شعور غريب . متناقض . . من الخوف والحب والرغبة العارمة في الحياة الرغيدة المستقرة مع الزوجة والأطفال الذين يحبهم بشكل جنوني . . لم تبق سوى أيام حين يستلم منصبه الجديد ويبدأ تجربة جديدة مع العمل والحياة الزوجية . . إذن فهي رحلة البداية نحو السعادة! .

كان الهواء ربيعياً . . فيه رطوبة ممزوجة برائحة الأعشاب الطرية والتراب المبتل . . هذه الرائحة الغريبة التي كان يحبها كثيراً . . أغمض عينيه الواسعتين بعد أن ملأهما من مناظر المدينة التي ولد فيها وعشقها . . وأكمل مراحل دراسته الثلاث فيها . . كان متعباً جداً وارتخى في الحوض الخلفي للسيارة . . ثم أغفى . . غير أنه نسي أن ينبه السائق على عدم السرعة كعادته . .

كانت السيارة الآن تنطلق بجنون وتطير كلعبة أطفال صغيرة . . ثم تهوي كالصاعقة على إسفلت الشارع العريض الممتد كاللعنة . . وتنقلب عدة مرات وتتدحرج مثل كرة بيضاء كبيرة . لتستقر أخيراً على سقفها المهشم . . .

كان جسد المهندس ـ نور ـ على مبعدة أمتار قليلة من حطام السيارة المهشمة . . . مع بقع من دم متخثر . . ونثار من زجاج يلمع تحت وهج شمس آذار الدافئة . .

لقطة صغيرة من المقبرة

كنت الآن معه . . تحت القفص الحديدي الذي يضمّ قبره . أتلمس بأصابع مرتعشة . . الشاهدة الرخامية المنتصبة كاللعنة . . أحدق في كلمات الرثاء التي حفرها أصدقاؤه فوقها . . كلمات كالخناجر اللامعة تحت وهج الشمس . . راحت تمزقني . .

«هنا يرقد المهندس الشهيد الذي علّمنا حب العمل لدرجة الموت . ! » احتضنت القفص الحديدي . . وكنت مليئاً بالغضب والحزن . . لامستْ شفاهي المحمومة القضبان الباردة وأنا أحتضنها بشوق قاتل . . ورحت أنشج بمرارة . . » .

بغداد